

الظُّوْحُ وَالْمَثَابَةُ

شرطان لازمان لرق الشاب

النمو هو سنة الأحياء . والشاب الذى يخوفى الجسم والذهن والروح بحس السعادة ولا يسأم الحياة . وهو حين يركد ويجمد يسأم الدنيا ويمس شقاء يبدو عليه فى كل عمل مباشرة وفى كل حال يلبسه .

والشاب الذى ينمو فياخذ بأسباب ترقية ذهنه وتقوية جسمه ورياضة روحه يجد للحياة مغزى ويسلك فيها كأنه يمثل فكرة . ونحن ننظر اليه فيجد له شخصية تتمثل فى أذهاننا فكرة ومغزى . ونحس كأن وجوده ضرورى للدنيا وكأنه بعض وسائلها للرق وأنه عامل من عوامل النهضة الاجتماعية . نحترمه ونستشيريه ونقتدى به .

فهل سألت نفسك أيها الشاب : هل أنت فكرة أمام الناس ، وهل لوجودك مغزى ، أم أنت تعيش فى المجتمع وكأنك إحدى الظواهر الطبيعية التى لا تلتفت اليها لأننا نألفها كما نألف الضوء والظل والماء والنبات ؟

من العادة أن يكتب الأوربيون على قبورهم كلمات تحمل مغزى ما . وهى إما أن يكتبها شخص المتوفى قبل وفاته ، لأنه يريد أن يعرفه الأحياء بها ، وإما أن يكتبها الذين يحبونه من ذويه أو أصدقائه للذكرى . وقد كتب ذات مرة على قبرهذه العبارة : " ولد إنسانا ومات بقالا " .

وقد يكون الكاتب هو نفسه هذا المقبور . رأى فى أخريات أيامه أنه عاش منهمكا فى عمله لا يعرف سواه وأنه أهمل الرق أو النمو فلم يحى إلا حياة الطعام والشراب كأنه بعض النبات . ولم يرتق ذهنه ولم تخصص روحه ولم يحس سعادة الرق ولم يتعمق فى الحياة ولم يصل إلى أسرارها . بل عاش على سطحها ينشد الطمأنينة فى بيع البقول ولا يلتفت إلى غير هذا العمل . ولما كسب المال ولكنه شعر أنه مع ذلك قد خسر الحياة حتى اعترف أنه كان إنسانا فى صباه ثم استحال بقالا .

وما أحرانا جميعا بأن نتعظ بهذه العظة وأن يسأل كل منا نفسه : هل أنا إنسان قد توافرت لى الحظوظ الإنسانية من رقى ونمو، وهل عشت أو أعيش الآن عيش التعمق أو أنا أمس الحياة من السطح حتى لكأني بعض النبات ؟

مات أحدهم قبل أيام. فلما نبي الى أحد أصدقائه القدامى قال هذا الصديق : إنه دفن قبل أيام ولكنه في الحقيقة مات قبل ثلاثين عاما . وهو يعنى أنه كان شابا راقيا قبل ثلاثين عاما. كان يقرأ ويتناقش ويحس أنه راع مسؤل عن رعيته ، يشغل بشئون أمته وعالمه وكان ينجى نفسه ويرقيها . فكانت له شخصية وكان لحياته مغزى . ثم كف عن الرقى والنمو فأصبح وكأنه ميت . وهذا صحيح لأنه لا يكفى أن نجيا حياة النبات نأكل ونشرب ونتنفس ، حياة فسيولوجية مادية . إنما الحياة الراقية هي تلك التي ينمو بها الحى وينكشف ويتطور . ولا يكون هذا النمو أو هذا التكشف والتطور إلا اذا كان هناك طموح ومع الطموح مثابة . لأن الطموح يعين لنا أهدافا وغايات نقصدها ونوجه إليها نشاطنا . والمثابة تغذى هذا الطموح وتحييه في أنفسنا .

وللدكتور ابراهيم ناجى قصة تستحق أن تدرس للعبرة كما تقرأ للنسلية . فقد صور فتاة مصرية متنبهة الذهن يقظة الضمير تتقف نفسها وتدرس شئونا مختلفة ، ولما ما يشغلها هنا وما يشغلها هناك من شئون هذا العالم . ثم تتزوج على غير ما تحب فيسقط في يدها وتستسلم كأنها الأسير قد سلم سلاحه . فتسمن وتركد وتعيش تلك الحياة النباتية التي نعرفها في كثير من رجالنا ونسائنا . وعلامة الركود هي هذا السمن الذي يتفشى بيننا والذي نحسبه مرضا من أمراض الجسم . وإنما هو في الحقيقة مرض نفسى قبل أن يكون مرضا جسما . ذلك لأننا لا نسمن إلا لأن النفس قد ضعف نشاطها وقررت في طموحها وشملها السأم فهي تشد اللذات الصغيرة في الطعام والشراب . وقتل الوقت قد يكون أحيانا بأكل اللب والفول كما يكون بقراءة التمعص السخيفة . ومن هو ذلك الذي يريد أن يقتل الوقت غير أولئك الذين سموا الحياة فهم لا يريدون أن يعيشوا وينشطوا ؟ وليس هناك امرأة أو رجل تراه منكبا على التهام اللب أو الفول أو التمس إلا أنه يحس ضيقا أو اكتئابا يفرج عنها بهذه النسلية التي تنتهى بمرور الأشهر إلى تحميل جسمه بمقدار كبير من الشحم الزائد . فركود الجسم وترهله إنما هو نتيجة الركود أو الترهل النفسى .

وأنت واجد على الدوام بين الناس صنفين : أحدهما ذلك الشخص المجد المثابر الطموح الذى يعنى بجسمه وذخنه ، وهو فى الغالب نحيف متفزز مقدم ، إن لم تكن له فلسفة قد استقر عليها فلا أقل من أنه ينشدها ، ومثل هذا الشخص تراح اليه لأننا نجد لحياته مغزى وفيه إيحاء نصفه بالرجولة أو نقول بأن له شخصية ، نحترمه ونستشيره ونحجب أن نقمدي به . وثم

شخص آخر يترهل في جسمه لأن ذهنه قد ترهل ، وهو في الغالب راكد متشائم يجد الصعوبات أمامه مائلة في كل مشروع ، فهو دائم الاحجام ، كما هو خير بقتل الوقت مواء في النوم بالنهار زيادة على نومه بالليل ، أم بالألعاب السخيفة على القهوات أم بالتذاذ اللب والقول . ولعله في يوم ما بعد طول السأم والتجارب في قتل الوقت يتهمى الى أن أنجع الطرق في ذلك هو تعاطى المشروبات الكحولية ، ثم بعد ذلك السقوط .

وعلى كل شاب أن يسأل نفسه أى الصنفين هو ؟ فان كان الأول فإنه سيتطلع الى حياة خصبة بالأعمال ، حافلة بالنشاط والى شذوية تنمو وترتقى على مر السنين ، بل الى شيخوخة لم يزايلها الشباب الذهن والنفس إن لم نقل شباب الجسم ، وان كان الثاني فلينأمل نفسه وليشرع في الاصلاح وليبدأ منذ الآن ، وقد يجد في تحلقه ما يثبطه ، ولكن لا بد من البداية وإن كانت صغيرة . فقد يجد الشاب نفسه وقد أفنق السنين الطويلة في العقيم من السلويات التي وقفت نموه ، فهو أسف على ما فات لا يؤمل في ما هو آت ، وهو بمثابة الفقير الذي يرفض الادخار لأنه مهما يدخر لن يجمع شيئاً عظيماً ، ولكن هذا خطأ ، فإنه كما يجير الفساد الفساد كذلك يستتبع الإصلاح الإصلاح ، ويقول الفرنسيون "الأحسن عدو الحسن" وهم يعنون بذلك إن الانسان وهو يطعم في تحقيق الأحسن يستصغر الحسن ولا يباليه ، مع أنه لن يصل الى هذا الأحسن إلا بعد أن يحقق الحسن . فيجب على الشاب ألا تبطله البداية الضعيفة وألا تكفه عن الإصلاح القادم وفرة الفساد الماضي . ومن أقول ماركوس أوريليوس "إنه لمن المحزى أن تنهن النفس قبل أن يهن الجسم" فإدام للشاب في جسمه عافية وبه قوة على العمل فإنه يجب أن يستشعر في نفسه مثل هذه القوة وأن يكون عنده من الطموح والمثابرة ما يجعله يرق نفسه ويسمو بها من مستوى الى آخر أعلى منه ، وبذلك يحس السعادة ويجد الاحترام ، بل الحب والإعجاب من الجميع .

— يستأذن الموت على العاقل ، ويدفع الباب على الغافل .

— رب استحياء تحته رياء .

— عجبت من الصدر يسع الحادث الجليل ، ويضيق بمحدث الثقل .

(شوقي)